أثر علم المناسبات القرآنية في التفسير المقاصدي عند الإمام ابن عاشور

د. نشوان بن عبده خالد[1]

أ. محمد شكري بن عبد الله[2]

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى بيان أثر علم المناسبات على التفسير المقاصدي للقرآن الكريم في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، كما يهدف إلى التعريف بهذين الفنين العظيمين ومدى الاتساق بينهما، فالمناسبات القرآنية علم شريف له أهميته ومكانته في التفسير، وله فوائد جمة منها أنه من قواعد التفسير ودال على إعجاز القرآن, والتفسير المقاصدي من الأهمية بمكان لما له من أثر في إبراز خصائص القرآن الكريم ومقاصده وفاعلية النص القرآني في إحداث التغيير الاجتماعي.

ولتحرير هذا الأثر وسبر خصائصه فإن البحث يتخذ من المنهج التحليلي مساراً يجلي مفاصل هذه المسألة ويدقق في إحداثياتها مصدراً بالأدلة والقرائن المستوحاه من رحاب تفسير ابن عاشور، ويسلك البحث أيضاً مسار المنهج الاستقرائي للتعريف بعلم المناسبات والتفسير المقاصدي كعلمين هامين من علوم القرآن الكريم.

ويخلص البحث إلى جملة من النتائج من أهمها: أن منهج ابن عاشور برز متألقاً في الاستفادة من علم المناسبات بما يخدم التفسير المقاصدي، وذلك من خلال اعتماده للمناسبات في منهجية تفسيره فهو يبدأ بذكر مناسبة الآية لما قبلها إن وجدت، ويتخذها كمدخل لخدمة توجهه في التفسير، فهو يؤمن بأن المناسبات مهمة لخدمة الأغراض والمقاصد عموماً، وذلك من حيث إبراز الترابط والتواؤم بين أجزاء الآية الواحدة والآيات في السورة، وبين السور القرآنية، فالترابط بين أجزاء الآية وبين أجزاء السورة والقرآن ككل يدل على ترابط الأغراض في الجميع، إلى غير ذلك من النتائج.

[1] محاضر في قسم التلاوة، مركز اللغات والتأهيل الجامعي، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، إيميل: nashwan@iium.edu.my

[2] محاضر في قسم التلاوة، مركز اللغات والتأهيل الجامعي، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

أثر علم المناسبات القرآنية على التفسير المقاصدي في تفسير ابن عاشور

مقدمة: أهمية علم المناسبات وعلاقته بالمقاصد القرآنية

يجد الناظر في علم المناسبات أنه وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وقد نال عناية العلماء، وحظي باهتمامهم، فقد ذكر الزركشي في البرهان: أن أبا بكر النيسابوري هو أول من أظهر علم المناسبات، وكان: "إذا قرئ عليه الآية يقول: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة"[3].

وقد اهتم به الرازي، وضمَّنه في تفسيره، ومما جاء عنه في آخر سورة المائدة: "فمفتتح السورة من الشريعة ومختتمها بذكر كبرياء الله وجلاله وعزته وقدرته وعلوه، وذلك هو الوصول إلى مقام الحقيقة، فما أحسن المناسبة بين ذلك المفتتح وهذا المختتم"[4]، وقد أبان البقاعي هذه الأهمية بقوله: "علم مناسبات القرآن: علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير، نسبة علم البيان من النحو"[5].

وقد اهتم به الزركشي، وأبان فائدته بقوله: "وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء، وقد قلَّ اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته"[6].

---

[3] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط1، 1376هـ/1957م) ج1، ص36.

[4] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1421هـ/2000م) ج12، ص115-116.

[5] البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، تحقيق: عبدالرزاق غالب المهدي, (بيروت: دار الكتب العلمية, د.ط, 1415هـ /1995م) ج1، ص6.

[6] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج1، ص36.

ومن جملة من اهتم بهذا العلم ابن عاشور، حيث أولى علم المناسبات عناية خاصة، وقد صرح بذلك في مقدمة تفسيره، حيث يقول: "وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز، ونكت البلاغة العربية، وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وهو منزع جليل قد عني به فخر الدين الرازي، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمَّى: نظم الدرر في تناسب الآي والسور، إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع"[7]، وقد درج كثير من العلماء لمتابعة هذا الاهتمام والعناية به، وتظهر أهمية علم المناسبات في النواحي الآتية:

- أن علم المناسبات علم شريف، له فوائده وثماره في التفسير، يدل على علم صاحبه وبعد نظره، وقدرته على الربط والغوص في أسرار الآيات والسور، وهذا ما حدا بالزركشي إلى وصفه بالقول: "علمٌ شريفٌ تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول"[8]، وما جعل الباقلاني يتجلى بجميل عباراته واصفاً هذا العلم بقوله: "فأمَّا نهج القرآن، ونظمه، وتأليفه، ورصفه، فإن العقول تتيه في جهته، وتحار في بحره، وتضل دون وصفه، واعلم أن هذا علمٌ شريفُ المَحَل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه، وهو أدق من السحر، وأهول من البحر، وأعجب من الشعر"[9]. إلى غير ذلك من الأوصاف التي وصف بها علم المناسبات.
- أنه من أهم القواعد التفسيرية التي اعتمد عليها المفسرون في تفاسيرهم، فحمل الآية على التفسير الذي يجعلها داخلة في معاني ما قبلها وما بعدها أحسن وأولى؛ لأن أوفق للمناسبة وأليق بالسياق، كما يقرر ذلك صاحب قواعد الترجيح في التفسير[10].
- أن علم المناسبات دال على إعجاز القرآن، بل هو من إعجاز القرآن بما حواه من التناسق والارتباط، وحسن البناء، يقول الدكتور محمد دراز: "لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب تربيته معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات،

---

[7] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، د.ط، 1997م) ج1، ص8.

[8] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج1، ص35.

[9] أبو بكر الباقلاني، **إعجاز القرآن**، تحقيق: السيد أحمد صقر، (القاهرة، دار المعارف، ط1، د.ت) ص184.

[10] انظر: حسين الحربي، **قواعد الترجيح عند المفسرين**، (الرياض: دار القاسم، ط1، 1417هـ/1996م) ص125.

وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات، لعمري إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات"[11]، ويقرر مصطفى مسلم أن: "من مزايا النظم القرآني اهتمامه بالجملة القرآنية، واختيار المكان المناسب فيها للكلمة المعبرة"[12].

وجميع ما سبق من الإشارات والدلالات من كلام العلماء وأرائهم في علم المناسبات تؤكد لنا بجلاء أهمية علم المناسبات وعناية العلماء به؛ لارتباطه بالمقاصد والأغراض من ناحية، ولارتباطه بالإعجاز والإيجاز من ناحية أخرى.

المبحث الأول: التعريف بعلم المناسبات والتفسير المقاصدي

ويجدر بنا الإشارة هنا إلى التعريف اللغوي والاصطلاحي بهذين الفنين: علم المناسبات، والتفسير المقاصدي.

أولاً: التعريف بعلم المناسبات

ترد المناسبات في المعاجم بمعاني متعددة، وأبرزها ما يأتي:

المشاكلة والمشاركة: جاء في تاج العروس: "المناسبة: المُشَاكَلَة، يقال: بين الشيئين مُنَاسَبةٌ وتنَاسُبٌ: أي مُشَاكَلةٌ وتشَاكُلٌ، وكذا قولهم: لا نسبة بينهما، وبينهما نسبة قريبة"[13].

المشابهة والمقاربة: وجاء في المعاجم: المُنَاسَبَات: جمع مُنَاسَبة، والمُنَاسَبة هي المُشَاكَلَة، والمُشَارَكَة، والمُشَابَهة، والمُقَاربة[14].

الملائمة والتوافق: وفي المعجم الوسيط: "نَاسَبَ فلاناً شَرِكَهُ في نسبه، وشَاكَلَه، يقال: بينهما مُنَاسَبة، ويقال: نَاسَبَ الأمر أو الشيء فلاناً لَاءَمَهُ، ووافق مِزَاجَه: (انْتَسَبَ) ذكر نَسَبَهُ، يقال: نَسَبَنِي

---

[11] محمد عبد الله دراز، **النبأ العظيم**، تحقيق: عبد الحميد الدخاخني، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط1، 1417هـ/1997م) ص264.

[12] مصطفى مسلم، **مباحث في إعجاز القرآن**، (دمشق: دار القلم، ط1، 1429هـ/2008م) ص137.

[13] محمد بن محمد الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، (بيروت: دار الهداية، د.ط، د.ت) ج4، ص265.

[14] انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط1، د.ت) ج1، ص755، وانظر: محمد بن أبي بكر الرازي، **مختار الصحاح**، ص688، وانظر: أحمد بن على الفيومي، **المصباح المنير**، (بيروت: المكتبة العلمية، ط1، د.ت) ج2، ص602.

فانْتَسَبتُ إليه، وإلى فلان اعْتَزَى، (تنَاسَبَ) الشيئان: تَشَاكَلَا، والقوم إلى أَحسَابهم انْتَسَبُوا إليها"[15]، وعند الأصوليين: المناسبة هي: تعيين العلة بمجرد إبداء المناسبة، مع السلامة عن القوادح، لا بنص ولا غيره[16].

وبالنظر في المعاني اللغوية نجد أن المناسبة يدور معناها بين المشاكلة، والمشاركة، والمشابهة والمقاربة، والملائمة، والتوافق، وكلها معاني متقاربة. أما من جهة الاصطلاح فقد تعددت تعريفات العلماء للمناسبات بمعناها الاصطلاحي، ومن أبرزها ما يأتي:

تعريف ابن العربي: حيث أوضحها بأنها: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني"[17].

تعريف البقاعي: حيث عرف علم المناسبات بقوله: "هو علم تعرف منه عَلل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجادُة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها""[18].

تعريف الزركشي: فقد بينها بقوله: "المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول، وكذلك المناسبة في فواتح الآي، وخواتمها، ومرجعها، والله أعلم إلى معنى ما رابط بينهما عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، وغير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني"[19].

تعريف فهد الرومي: حيث يرى أنَّ: "المناسبة: هي وجه ارتباط بين الآية والآية التي تليها، والسورة والسورة التي تليها، وفاتحة السورة وخاتمتها ونحو ذلك. أو هي وجه ارتباط أجزاء القرآن بعضها ببعض"[20].

---

[15] انظر: إبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار، **المعجم الوسيط**، ج2، ص916.

[16] انظر: محمد بن عمر الرازي، **المحصول في علم الأصول**، تحقيق: طه جابر العلواني، (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، ط1، 1400هـ) ج5، ص217، وانظر: محمد بن على الشوكاني، **إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول**، تحقيق: أحمد عزو عناية، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1419هـ/1999م) ج2، ص127.

[17] أورد هذا التعريف الزركشي في **البرهان**، ج1، ص36، ونسبه لابن العربي في كتابه: **سراج المريدين**، ولم أستطع الوقوف على هذا الكتاب نظراً لكونه مخطوطاً لم يطبع حسب تتبعي له.

[18] البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج1، ص6.

[19] بدر الدين الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج1، ص35-36.

[20] فهد الرومي، **دراسات في علوم القرآن**، (الرياض: د.ن، ط16، 1430هـ/2009م) ص447.

وقريب من تعريف الرومي، تعريف عمر المديفر حيث يرى بأنه: "هو علم يبحث فيه عن ارتباط آي القرآن، وسوره بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني"[21].

ومما سبق من التعريفات الاصطلاحية يتضح لنا وجود تعريف ظاهري للمناسبات، ويمثله تعريف ابن العربي، وتعريف الرومي، ومن تابعهما، ووجود تعريف آخر يتسم بالعمق، ويمثله تعريف البقاعي، وتعريف الزركشي، فقد ذكرا في تعريفها بعداً آخر تميز بالقرب من الأسرار والمقاصد، ويمكننا الجمع بين التعريفات السابقة بالتعريف الآتي:

(علم المناسبات: هو ذلك العلم الذي يعني بأسرار ارتباط الآيات والسور بعضها ببعض، انطلاقاً من أغراضها ومقاصدها التي تضمنتها، للوصول إلى حقيقة الاتساق والانتظام للمعاني والمباني بينها).

رأي العز ابن عبد السلام والشوكاني في علم المناسبات

وقف العز ابن عبد السلام موقفاً آخر في علم المناسبات حيث اشترط أن تكون المناسبة ذات غرضٍ متحدٍ، وإلا فإن التكلف فيها حاصل، حيث يقول: "واعلم أن من الفوائد أن من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض، ويتشبث بعضه ببعض، لئلا يكون مُقطَّعاً مُتبَّراً، وهذا بشرط أن يقع الكلام في أمرٍ متحدٍ، فيرتبط أوله بآخره، فإذا وقع على أسباب مختلفة، لم يشترط فيه ارتباط أحد الكلامين بالآخر، ومن ربط ذلك فهو مُتَكلِّف"[22]، ثم أخذ يضرب الأمثلة على ذلك. **أما الشوكاني**: فقد سلك مسلك اللوم والتقريع على القائلين بالتناسب، ومما جاء عنه في ذلك: "اعلم أن كثيراً من المفسرين جاءوا بعلم مُتكلَّف وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن

---

[21] انظر: عمر بن محمد المديفر، **المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور من سورة طه إلى سورة القصص جمعاً ونقداً ودراسة**، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، رسالة ماجستير غير مطبوعة، د.ت) ص19.

[22] العز بن عبد السلام، **الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز**، تحقيق: رمزي بن سعد الدين دمشقية، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط1، 1408هـ) ص221.

كلام الرب سبحانه"[23]، ورأي الشوكاني هنا يستلزم مناقشة وتفصيلاً قد يخرجنا عن المقصود، غير أن رأيه لا يقلل من أهمية التناسب التي ذكرها، ولا يخدش من موضوعية المؤيدين للتناسب.

ثانياً: التعريف بالتفسير المقاصدي

القَصْد والمقْصَد والمقاصد في الأصل تعني العزم والتوجه نحو الشيء، ولها استعمالات أخرى متعددة منها: الاستقامة، والاعتدال، والتوسط، والاعتماد، والأَمُّ[24]، وتعتبر الحكمة من أقرب تلك المعاني للمقاصد، وورودها في القرآن أكثر[25]، ويستعمل الأصوليون عادة لفظ المقاصد تحت معنى الهدف والغاية من الأحكام التشريعية، وهناك العديد من الألفاظ المستعملة بمعنى المقاصد ومنها: الحِكَم والحكمة، والأسرار، والغايات، والأهداف، والأغراض[26]. ولا بد من أن نفرق بين مقاصد الشريعة عموماً، ومقاصد القرآن خصوصاً، إذ أنَّ مقاصد القرآن هي أصل مقاصد الشريعة، وعليها تدور مقاصد الشريعة، ومنها تستمد، ومن التعريفات الأصولية للمقاصد تعريف الإمام الشاطبي حيث يرى مفهوم المقصود الشرعي: "أنَّ المقصود الشرعي من الخطاب الوارد على المكلفين تفهيم ما لهم وما عليهم، مما هو مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم، وهذا يستلزم كونه بينًا واضحًا لا إجمال فيه ولا اشتباه"[27]. وقد وضع الإمام الشاطبي ثلاث جهات لمعرفة القصد الشرعي وهي: إرادة التكليف، والمقصود الدلالي من الخطاب الشرعي، والمقصود الشرعي من الحكم[28]. أما ابن عاشور فأوضحها

---

[23] الشوكاني، **فتح القدير**، ج1، ص116.

[24] محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، (بيروت: دار الجيل، د.ط، د.ت) ص545.

[25] انظر: عبد الكريم حامدي، **المدخل إلى مقاصد القرآن الكريم**، (الرياض: مكتبة الرشد ناشرون، ط1، 1428هـ/2007م) ص37، وانظر: يَمينَة ساعد بُوسعَادي، **مقاصد الشريعة وأثرها في الجمع والترجيح بين النصوص**، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنسر والتوزيع، ط1، 1428هـ/2007م) ص33، وانظر: عادل الشويخ، **تعليل الأحكام في الشريعة الإسلامية**، (طنطا: دار البشير للعلوم والثقافة، ط1، 1420هـ/2000م) ص124.

[26] انظر: عبد الكريم حامدي، **مقاصد القرآن من تشريع الأحكام**، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1429هـ-2008م) ص20-21.

[27] إبراهيم بن موسى الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، (السعودية: دار ابن عفان، ط1، 1417هـ/1997م) ج4، ص140.

[28] انظر: إسماعيل الحسني، **نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور**، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1416هـ/1995م) ص114-115.

بقوله: "مقاصد التشريع العامة هي: المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع، أو معظمها؛ بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاصّ من أحكام الشريعة"[29].

وبناءً على ما سبق من بيان لمصطلح مقاصد القرآن نخلص إلى أنَّ مقاصد القرآن هي: (الأسرار والحكم والغايات التي نزل القرآن لأجل تحقيقها جلباً للمصالح، ودفعاً للمفاسد، وهي واضحة في جميع القرآن أو معظمه).

إنَّ التفسير المقاصدي يعتبر تفسيراً تجديدياً، بالرغم من أن تاريخ المقاصد قديمٌ قِدَم التشريع، واستعمال لفظ المقاصد ومعانيه مشهور منذ القِدَم، إلا أنَّ إدخال المقاصد في التفسير ظهر في القرون المتأخرة، ابتداءً من عصر محمد عبده، وتلميذه رشيد رضا، ثم ابن عاشور، وانتهاءً بسيد قطب، وسعيد حوَّى، وغيرهم ممن كتب في التفسير المعاصر، غير أن هؤلاء –رحمهم الله جميعاً– لم يوجد في تفاسيرهم التعريف الواضح لهذا النوع من التفسير، بالرغم من أن منهجيتهم واضحة، وطريقتهم في تناول المقاصد لا لبس فيها، ولعل الإمام ابن عاشور حاول في تعريفه للتفسير بمعناه الاصطلاحي أن يحدد ملامح هذا النوع من التفسير، بتعريفه للتفسير في مقدمات تفسيره، ولكن يظل تعريفه المذكور تعريفاً للتفسير بمعناه العام[30].

ومما سبق ذكره من التعريفات **يمكننا تعريف التفسير المقاصدي للقرآن الكريم بأنه**[31]:

(هو ذلك النوع من التفسير الذي يهتم ببيان الأغراض والمقاصد التي تضمنها القرآن، وشرعت من أجلها أحكامه، ويكشف عن معاني الألفاظ، مع التوسع في دلالاتها، مراعياً في ذلك قواعد التفسير الأخرى كالمأثور، والسياق، والمناسبات، وغيرها).

ويمكن تقسيم التعريف إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ويتضمن إبراز الأغراض والمقاصد، أو الأسرار والغايات التي أنزل الله تعالى من أجلها القرآن، وشرع سبحانه من أجلها الأحكام، فإن ذلك إظهار لعظمة القرآن، وبيان للمقاصد التي جاء

---

[29] محمد الطاهر ابن عاشور، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، ص251.

[30] انظر: محمد الطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص11.

[31] هذا التعريف من اجتهاد الباحث، إذ لم يعثر على تعريف مستقل للتفسير المقاصدي، وهو محاولة بحاجة إلى إثراء وتطوير، ويتعبر هذا التعريف امتداداً لما كتبه الباحث في رسالته للماجستير، انظر: نشوان عبده خالد، **معالم التفسير المقاصدي للقرآن الكريم: آيات الخمر نموذجاً**، (ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية، بحث تكميلي للحصول على درجة الماجستير في القرآن وعلومه، يونيو، 2010م) ص24.

لتحقيقها، وبهذا يستطيع المفسر أن يفسر القرآن وفقاً للمقاصد الخاصة، أو الجزئية التي دعا لها القرآن، وأثبتها من خلال ما جاء في آيات الأحكام، والحدود، والمعاملات، أو من خلال العبادات عموماً، والدعوة إلى الأخلاق، وإصلاح الفرد، والمجتمع، وكذلك من خلال القصص القرآني.

القسم الثاني: ويتضمن كشف الدلالات اللغوية لألفاظ القرآن الكريم، وبهذا يستطيع المفسر أن يفسر القرآن وفقاً للمقاصد العامة من القرآن، فإن احتمال الألفاظ لأوجه لغوية متعددة، وقراءات متواترة، فيه يسر ورفع للمشقة الناتجة عن تفسير واحدي للفظ، وهذا المنهج التيسيري من المقاصد التي جاء بها القرآن.

القسم الثالث: ويتضمن الاهتمام بقواعد التفسير الأخرى التي يكتمل بها وضوح الحكم، وفهم الآية كالمأثور، والسياق، والمناسبات، وأسباب النزول، من خلال الاستفادة منها، وتوظيفها في سبيل تقوية النهج المقاصدي الذي يرمى إليه المفسر بدون شذوذ أو خروج على المألوف، بل إن كل قول تفسيري يصب في فحوى الخطاب المقاصدي ينبغي أن يستدل به، وهذا ما نهجه الإمام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا في تفسير المنار، والذي سار عليه ابن عاشور في تفسيره.

المبحث الثاني: تقسيمات علم المناسبات

تعددت تقسيمات العلماء للمناسبات، واختلفت رؤيتهم حول تبعات ذلك التقسيم، ومن خلال التأمل، والتتبع، اتضح أنها تنقسم إلى قسمين رئيسين، ولكل قسم صُوَره التي تندرج تحته على النحو الآتي:

القسم الأول: التناسب بين الآيات في السورة الواحدة.

القسم الثاني: التناسب بين السور.

فأما القسم الأول فيتضمن من الصور ما يأتي:

1. تناسب الكلمات في الآية الواحدة.
2. تناسب الترتيب للآيات في السورة الواحدة.
3. تناسب مطلع السورة مع مقاصدها.
4. تناسب خاتمة السورة مع مقاصدها.
5. التناسب بين مطلع السورة وخاتمتها.

ويقصد بالتناسب في الصورة الأولى (تناسب الكلمات في الآية الواحدة): الترابط بين أجزاء الآية الواحدة، ومناسبة بدء الآية وخاتمتها، ومقاصدها وأغراضها، ومن أمثلة ذلك ما جاء عند قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾ [هود: 113]، حيث أتي بالعقاب هنا بلفظ المس؛ لأن الميل إلى الظالم لا يعني مشاركته في ظلمه، يقول ابن عاشور: "الرُّكون: الميل والموافقة، وفعله كعَلِم، ولعلّه مشتق من الرُّكْن بضم فسكون، وهو الجنب؛ لأنّ المائل يدني جنبه إلى الشيء الممال إليه، وهو هنا مستعار لموافق، فبعد أن نهاهم عن الطغيان، نهاهم عن التقارب مِن المشركين؛ لئلاّ يضلوهم ويزلوهم عن الإسلام، و ﴿الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: هم المشركون، وهذه الآية أصلٌ في سدّ ذرائع الفساد المحقّقة أو المظنونة، والمسّ: مستعملٌ في الإصابة...، والمراد: نار العذاب في جهنّم، وجملة: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء﴾ حال، أي لا تجدون من يسعى لما ينفعكم، و ﴿ثُمَّ﴾: للتّراخي الرتبي، أي ولا تجدون من ينصركم، أي من يخفّف عنكم مسّ عذاب النّار، أو يخرجكم منها"[32]. وهذا يبين وجود الترابط والتناسب بين أجزاء الآية الواحدة في خدمة الغرض الذي سيقت له، مما يزيد معناها روعة وتألقاً.

وأما الصورة الثانية (تناسب الترتيب للآيات في السورة الواحدة): وهي تناسب ترتيب الآيات في السورة، فإنها قد أثارت اهتمام المفسرين، وتعني تلاؤم الآيات مع بعضها البعض، بحيث تظهر كوحدة موضوعية متحدة الغرض والقصد، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158]، حيث يرى ابن عاشور أن المناسبة بين هذا الآية وما قبلها واقع موقع العدول عن الفعل، حيث يقول: "والمناسبةُ بينها وبين ما قبلها هو: أن العدول عن السعي بين الصفا والمروة يشبه فعل من عبر عنهم بالسفهاء من القبلة وإنكار العدول عن استقبال بيت المقدس، فموقع هذه الآية بعد إلحاقها بهذا المكان موقعُ الاعتراض في أثناء الاعتراض، فقد كان السعي بين الصفا والمروة من أعمال الحج من زمن إبراهيم عليه السلام، تذكيراً بنعمة الله على هاجر وابنها

---

[32] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج12، ص178. **ومن الأمثلة على ذلك ما جاء عن ابن عاشور في تفسيره**: انظر: ج1، ص562، وانظر: ج13، ص237.

إسماعيل، إذ أنقذه الله من العطش"[33]، وقد أشار المثال إلى وقوع التناسب بين الآيات مما زاد الآية وضوحاً في بيان أغراضها وارتباطها بما قبلها من الآيات.

وأما الصورة الثالثة (تناسب مطلع السورة مع مقاصدها): ويقصد من ذلك وقوع افتتاح السورة على نحو يدل على مضمونها ويدل على أغراضها ومقاصدها، ومن الأمثلة على ذلك ما ذهب إليه ابن عاشور في افتتاح سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: 1]، حيث يقول: "افتتاح السورة بخطاب النبي ﷺ، وندائه بوصفه مُؤذِنٌ بأن الأهم من سوق هذه السورة يتعلق بأحوال النبي ﷺ، وقد نودي فيها خمس مرات في افتتاح أغراض مختلفة من التشريع، بعضها خاص به، وبعضها يتعلق بغيره، وله ملابسة له

فالنداء الأول: لافتتاح غرض تحديد واجبات رسالته نحو ربه.

والنداء الثاني: لافتتاح غرض التنويه بمقام أزواجه واقترابه من مقامه.

والنداء الثالث: لافتتاح بيان تحديد تقلبات شؤون رسالته في معاملة الأمة.

والنداء الرابع: في طالعَة غرض أحكام تزوجه وسيرته مع نسائه.

والنداء الخامس: في غرض تبليغه آداب النساء من أهل بيته ومن المؤمنات.

فهذا النداء الأول افتتح به الغرض الأصلي لبقية الأغراض، وهو تحديد واجبات رسالته في تأدية مراد ربه تعالى على أكمل وجه، دون أن يفسد عليه أعداء الدين أعماله"[34]، وقد أرشدنا هذا المثال إلى أن صدر السورة يناسب محتواها وأغراضها التي تضمنتها، وهذه صورة تدل على قوة البلاغة القرآنية وجودة السبك فيها، حين تفتح السورة بمطلع يستهوى اللب، مع عذوبة في اللفظ، وجمال في النظم.

وأما الصورة الرابعة (تناسب خاتمة السورة مع مقاصدها): ويقصد به الترابط الحاصل بين آخر السورة، وأهم أغراضها، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء عند آخر سورة الحج في قول الله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: 78]، حيث يبين ابن عاشور ختام هذه السورة بذكر بعض أغراضها التي تضمنتها بقوله: "وفرع عليه إنشاء

---

[33] المرجع السابق، ج2، ص58-59، **ومن الأمثلة على ذلك أيضاً ما جاء عن ابن عاشور في تفسيره:** انظر: ج6، 168، وانظر: ج28، ص283.

[34] المرجع السابق، ج21، ص249. ومن الأمثلة على ذلك أيضاً ما جاء عن ابن عاشور في تفسيره: انظر: 26، ص278، وانظر: ج27، ص281.

الثناء على الله بأنه أحسن مولى وأحسن نصير، أي: نِعم المدبر لشؤونكم، ونِعم الناصر لكم، ونصير: صيغة مبالغة في النصر، أي نِعم المولى لكم، ونِعم النصير لكم، وأما الكافرون فلا يتولاّهم تولي العناية، ولا ينصرهم، وهذا الإنشاء يتضمّن تحقيق حسن ولايَة الله تعالى، وحسن نصره، وبذلك الاعتبار حسن تفريعه على الأمر بالاعتصام به، وهذا من براعة الختام، كما هو بَيّن لذوي الأفهام"[35]، وقد أبان ابن عاشور في هذا المثال بوقوع التناسب بين ختام الآية ومقاصدها التي تضمنتها، وأهمها مقصد الاعتصام.

وأما الصورة الخامسة (التناسب بين مطلع السورة وخاتمتها): ويقصد من ذلك وجود الترابط بين مطلع السورة وخاتمتها، من حيث الاتحاد في الألفاظ أو الأغراض، ومن الأمثلة على ذلك ما ساقه ابن عاشور عند تفسيره لقول الله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكـهف: 110]، هذه الآية هي آخر سورة الكهف، وأول آية هي قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا[الكـهف: 1]، حيث أوضح مناسبة الختام للبدء بقوله: "فجاء النظم بطريقة بديعة في إفادة الأصول الثلاثة، إذ جعل التوحيد أصلاً لها، وفرَّع عليه الأصلان الآخران، وأكد الإخبار بالوحدانية بالنّهي عن الإشراك بعبادة الله تعالى، وحصل مع ذلك ردّ العجز على الصدر، وهو أسلوب بديع"[36]، وقد أرشدنا هذا المثال إلى وجود التناسب بين ختام السورة ومطلعها.

القسم الثاني: التناسب بين السور

ويتضمن ثلاث صور:

1. تناسب فاتحة السورة مع فاتحة ما قبلها.
2. تناسب فاتحة السورة مع خاتمة ما قبلها.
3. تناسب مقاصد السورة مع مقاصد السورة التي قبلها.

فأما الصورة الأولى (تناسب فاتحة السورة مع فاتحة ما قبلها): فيقصد بها الترابط والتواءم بين فاتحتي سورتين متتاليتين، ولم أقف على اهتمام لابن عاشور بهذه الصورة، وقد ساق هذه الصورة الزركشي في

---

[35] المرجع السابق، ج17، ص353.

[36] المرجع السابق، ج16، ص55. **ومن الأمثلة على ذلك أيضاً ما جاء عن ابن عاشور في تفسيره**: انظر: ج21، ص248، وانظر: ج30، ص185.

البرهان[37]، وطبقها الرازي في تفسيره ومن ذلك قوله في مقدمة سورة الرحمن مبيناً الترابط بينها وبين سورة القمر: "اعلم أولاً أن مناسبة هذه السورة لما قبلها بوجهين: أحدهما أن الله تعالى افتتح السورة المتقدمة بذكر معجزة تدل على العزة والجبروت والهيبة، وهو انشقاق القمر، فإن من يقدر على شق القمر يقدر على هَدِّ الجبال، وقَدِّ الرجال، وافتتح هذه السورة بذكر معجزة تدل على الرحمة والرحموت، وهو القرآن الكريم، فإن شفاء القلوب بالصفاء عن الذنوب. ثانيهما: أنه تعالى ذكر في السورة المتقدمة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: 16]، غير مرة وذكر في السورة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 13]، مرة بعد مرة؛ لِمَا بيَّنَّا أن تلك السورة سورة إظهار الهيبة، وهذه السورة سورة إظهار الرحمة"[38]، فدل المثال على وجود التناسب بين افتتاح السورتين، واتحادهما في الأغراض والمقاصد.

وأما الصورة الثانية (تناسب فاتحة السورة مع خاتمة ما قبلها): ويراد منها اتحاد وتشاكل الأغراض بين آخر السورة، وبداية السورة التي تليها، يقول الزركشي: "إذا اعتبرت افتتاح كل سوره وجدته فى غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم هو يخفى تارة، ويظهر أخرى"[39]، ولم أقف على أمثلة من هذه الصورة عند ابن عاشور، غير أني وقفت على كلام للبقاعي يوضح فيه وقوع مثل النوع، حيث يبين فيه وقوع التناسب بين خاتمة سورة الإسراء، وافتتاح سورة الكهف فيقول: "لمَّا خُتِمت تلك بأمر الرسول ﷺ بالحمد عن التنزه عن صفات النقص؛ لكونه أعلم الخلق بذلك، بدئت هذه بالإخبار باستحقاقه سبحانه الحمد على صفات النقص؛ لكونه أعلم منها البراءة عن كل نقص، منبهاً بذلك على وجوب حمده بما شرع من الدين على هذا الوجه الأحكم بهذا الكتاب القيم الذي خضعت لجلاله العلماء الأقدمون، وعجز عن معارضته الأولون والآخرون"[40]، وقد أرشد هذا المثال إلى حدوث هذه الصورة بوجود الترابط والتلاحم بين أواخر السورة ومفتتح التي تليها.

وأما الصورة الثالثة (تناسب مقاصد السورة مع مقاصد السورة التي قبلها): ويراد بها أن يكون هناك اتحاداً وتشاكلاً في أغراض سورتين متتاليتن، ومن خلال التتبع لم أجد عند ابن عاشور تصريحاً بهذه الصورة، غير أنه استخدم ذلك تطبيقاً، ومن ذلك الاشتراك الحاصل بين مقاصد سورتي الأنفال

---

37 انظر: الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج1، ص39.

38 الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج29، ص73.

39 الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج1، ص38.

40 البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج4، ص441.

والتوبة[41]، وممن صرح بذلك البقاعي في حديثه عن التناسب بين مقاصد سورة الفاتحة، وسورة البقرة حيث يقول: "وأما مناسبة ما بعد ذلك للفاتحة فهو أنه لمَّا أخبر سبحانه وتعالى أن عباده المخلصين سألوا في الفاتحة هداية الصراط المستقيم الذي هو غير طريق الهالكين، أرشد في أول التي تليها إلى أن الهدى المؤول إنما هو في هذا الكتاب، وبين لهم صفات الفريقين الممنوحين بالهداية حتى على التخلق بها، والممنوعين منها زجراً عن قربها، فكان ذلك أعظم المناسبات لتعقيب الفاتحة بالبقرة"[42]، فدل هذا المثال على وقوع التناسب بين مقاصد سورتي الفاتحة والبقرة، وفي ذلك دلالة على حصول مثل هذه الصورة، وأرى أنه لا يلزم وجودها بين كل السور في القرآن الكريم؛ لأن ذلك قد يكون من قبيل التكلف والتصنع.

المبحث الثالث: أثر علم المناسبات القرآنية على التفسير المقاصدي عند ابن عاشور.

يتلخص موقف ابن عاشور المنهجي من علم المناسبات بالآتي:

التناسب بين الآيات بعضها ببعض: يقف ابن عاشور موقف المؤيد لهذا النوع من المناسبات، ويؤكد ذلك قوله: "واهتممت أيضاً ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وهو منزع جليل قد عني به فخر الدين الرازي، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمَّى: نظم الدرر في تناسب الآي والسور، إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع"[43]، فهو يصرح باهتمامه بهذا النوع بل ويمدحه بأنه منزع جليل، ويذكر اهتمامات السابقين به مصرحاً بأن هذا النوع لا يزال بحاجة إلى اهتمام، وبيان، وكأنه يفصح بأنه سيحاول سد قصور القدامى نحو هذا النوع.

ومن بدائع صنائعه نحو التناسب بين الآيات تأكيده بأن الأصل وقوع التناسب في الأغراض والمقاصد بين الآيات؛ لأن مصدرها التوقيف، حيث يقول: "وأما ترتيب الآي بعضها عقب بعض فهو بتوقيف من النبي ﷺ حسب نزول الوحي...، فلهذا كان الأصل في آي القرآن أن يكون بين الآية ولاحقتها تناسب في الغرض، أو في الانتقال منه، أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم

---

[41] **للاطلاع على أغراض سورة الأنفال** انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج9، ص247، **وللاطلاع على أغراض سورة التوبة** انظر: ج10، ص99.

[42] البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج1، ص32.

[43] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص8.

المتصل"[44]، وبهذا يؤكد ربطه بين المناسبات والأغراض من خلال تأكيده على أصلية وقوع التناسب بين الآية ولاحقها.

التناسب بين السور: أما موقفه من التناسب بين مواقع السور فهو موقف الرفض، فهو يرى أن القول بين التناسب بين السورة لا حاجة له للمفسر، وقد صرح بموقفه هذا بقوله: "أما البحث عن تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض، فلا أراه حقا على المفسر"[45]، ولعل ذلك نتيجة لموقفه من أن ترتيب السور اجتهادي فهو يرى رأي الجمهور من علماء التفسير في هذه المسألة[46]، ويفهم ذلك من خلال تلميحه إلى هذا الرأي عند حديثه عن ترتيب سور القرآن حيث يقول: "أقول: لا شك أن طوائف من سور القرآن كانت مرتبة في زمن النبي ﷺ على ترتيبها في المصحف الذي بأيدينا اليوم، الذي هو نسخة من المصحف الإمام الذي جُمع وكُتب في خلافة أبي بكر الصديق، ووزعت على الأمصار نسخ منه في خلافة عثمان ذي النورين، فلا شك في أن سور المفصل كانت هي آخر القرآن، ولذلك كانت سنة قراءة السورة في الصلوات المفروضة أن يكون في بعض الصلوات من طوال

---

[44] المرجع السابق، ج1، ص79.

[45] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص8.

[46] **يرى الجمهور** أن ترتيب سور القرآن الكريم كان باجتهاد من الصحابة رضوان الله عليهم، واستدلوا على ذلك الرأي باختلاف مصاحف السلف في مسألة ترتيب السور، فمنهم من رتبها على حسب النزول، وهو مصحف علي بن أبي طالب ﷺ كان أوله اقرأ ثم المدثر ثم نون ثم المزمل ثم المسد ثم التكوير، وهكذا إلى آخر المكي والمدني، وكان أول مصحف ابن مسعود البقرة ثم النساء ثم آل عمران على اختلاف شديد، وكذا مصحف أبي هريرة وغيره، **ويرى فريق آخر** أن الترتيب كان بتوقيف من الرسول ﷺ ومنهم الكرماني حيث قال: "ترتيب السور هكذا هو عند الله في الكتاب في الكتاب المحفوظ على هذا الترتيب"، وقال الطيبي: "أنزل القرآن أو لا جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا على حسب المصالح، ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ"، وقال مرتبًا سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة، وقال البيهقي: "كان القرآن على عهد النبي ﷺ مرتباً سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة" وقال السيوطي: "وما يدل على أنه توفيقي كون الحواميم رتبت ولاء، وكذا الطواسين، ولم ترتب المسبحات ولاء بل فصل بين سورها، وفصل بين طسم الشعراء، وطسم القصص بطس مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهاديًا لذكرت المسبحات ولاء، وأخرت طس عن القصص، والذي ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي، وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلا براءة والأنفال" (انظر: الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج1، ص257، وانظر: الزرقاني، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، د.ط، د.ت) ج1، ص353). من خلال عرض الآراء في هذه المسألة يترجح للباحث أن مسألة ترتيب السور مسألة توقيفية نظراً للأدلة السابقة ومراعاة لمقاصد القرآن الداعية إلى الأخذ بالأحوط، ويمكننا الجمع بين القولين بأن ترتيب السور توقيفي وليس بالضرورة وقوع التناسب.

المفصل، وفي بعضها من وسط المفصل، وفي بعضها من قصار المفصل، وأن طائفة السور الطولى الأوائل في المصحف كانت مرتبة في زمن النبي ﷺ أول القرآن، والاحتمال فيما عدا ذلك"[47].

ومن خلال هذا النقل المبين لرأي ابن عاشور نحو المناسبات يتضح لنا أنه يدعو ويشجع إلى البحث عن التناسب بين الآيات، بل ويرى أن في ذلك خدمة لأغراض السورة، ولذلك أكثر منها وساقها في تفسيره، وبالمقابل فإنه لا يرى طلب التناسب بين السور نتيجه لمتابعته رأي الجمهور في المسألة، ولذلك فإنه لم يحرص على الربط بين السور في تفسيره.

والذي نراه في هذه المسألة: أن التناسب بين السور لا يُتكَلَّف فيه، بالبحث عن مناسبات من غير وجه صحيح، ويقتصر الأمر على النظر في السور إن برزت فيها مناسبات من غير تكلف، فهذا أمر حسن، يسهم في إبراز ما في القرآن من الأسرار والحكم، ويخدم التفسير المقاصدي، وما كان فيه تكلف وتعسف فهو ما قصده الجمهور.

أما على المستوى العام لإيراد المناسبات في تفسير التحرير والتنوير والتي تعتبر من نوع التناسب بين الآيات فإنه ينحو المنحى الآتي:

- يذكر ابن عاشور المناسبة في الآية قبل أن يشرع في تفسيرها في الغالب، ومن ذلك على سبيل المثال، ما جاء عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [البقـرة: 44]، حيث يبين وجه مناسبة هذه الآية لما قبلها مبيناً أغراضها فيقول: "اعتراض بين قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾ [البقـرة: 43]، وقوله: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقـرة: 45]، ووجه المناسبة في وقوعه هنا أنه لما أمرهم بفعل شعائر الإسلام من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وذيل ذلك بقوله: ﴿وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقـرة: 43]؛ ليشير إلى أن صلاتهم التي يفعلونها أصبحت لا تغني عنهم، ناسب أن يزاد لذلك أن ما يأمر به دينهم من البر ليسوا قائمين به على ما ينبغي، فجيء بهذا الاعتراض، وللتنبيه على كونه اعتراضاً لم يقرن بالواو؛ لئلا يتوهم أن المقصود الأصلي التحريض على الأمر بالبر، وعلى ملازمته، والغرض من هذا هو النداء على كمال خسارتهم، ومبلغ سوء حالهم الذي صاروا إليه، حتى صاروا يقومون بالوعظ، والتعليم كما يقوم الصانع بصناعته، والتاجر بتجارته، لا يقصدون إلا إيفاء وظائفهم الدينية حقها؛

[47] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص86-87.

ليستحقوا بذلك ما يعوضون عليه من مراتب ورواتب، فهم لا ينظرون إلى حال أنفسهم تجاه تلك الأوامر التي يأمرون بها الناس"[48]، من خلال هذا المثال نلاحظ الآتي:

- يذكر مناسبة الآية بما قبلها قبل الشروع في تفسيرها.
- يشير إلى الغرض الأصلي من وقوع التناسب بينهما.
- يذكر مجموعة من الأغراض والمقاصد الفرعية التي أفادها التناسب الحاصل والتي منها أن المقصد الأصلي هو التحريض على عمل البر والتقوى، والتذكير بالخسارة الحاصلة، وسوء الحال.

– ويعمد ابن عاشور إلى ذكر المناسبة بين الآية والآية، سواءً أكانت قبلها أو بعدها، ومن ذلك ما جاء عنه عند قول الله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البـــقرة: 256]، حيث يقول: "وتعقيب آية الكرسي بهاته الآية بمناسبة أنّ ما اشتملت عليه الآية السابقة من دلائل الوحدانية، وعظمة الخالق، وتنزيهه عن شوائب ما كفرت به الأممُ، من شأنه أن يسوق ذوي العقول إلى قبول هذا الدين الواضحِ العقيدة، المستقيم الشريعةِ، باختيارهم دون جبر ولا إكراه، ومن شأنه أن يجعل دوامهم على الشرك بمحل السؤال: أيُتْرَكون عليه أم يُكْرَهُون على الإسلام، فكانت الجملة استئنافاً بيانيَّاً"[49]، وقد وافق ابن عاشور البقاعي في معنى هذه المناسبة حيث يقول البقاعي: "ولـمَّا اتضحت الدلائل لكل عالم وجاهل، صار الدين إلى حد لا يحتاج فيه منصف لنفسه إلى إكراه فيه فقال: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾"[50]، وبالنظر في أثر مناسبة الآية في خدمة التفسير المقاصد يتبين لنا الآتي:

- يبرز أهمية المناسبة بين الآية والآية في الربط بين المعاني وإيضاحها في قالب يكشف المقصود والغرض الأسمى منها.

---

[48] المرجع السابق، ج1، ص474، **وللاطلاع على المزيد من الأمثلة** انظر: ج1، ص479، وانظر: ج1، ص652، وانظر: ج26، ص228.

[49] المرجع السابق، ج3، ص25، **وللاطلاع على المزيد من الأمثلة** انظر: ج5، ص219، وانظر: ج7، ص193، وانظر: ج20، ص6.

[50] البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج1، ص500.

- يسوق الأغراض والمقاصد عند بيان التناسب يفضي إلى توضيح المقصود من الآية، ويجلى هدفها ومراميها.
- يكشف عن العديد من المقاصد التي تضمنتها الآية ومنها: مقصد الإقناع للعقل والقلب، ومقصد الاختيار في الدين وعدم الإكراه، ومقصد العظمة لدين الإسلام. ومقصد التنزيه للخالق سبحانه وتعالى.

- وأحيانا يذكر المناسبة بين ألفاظ الآية الواحدة؛ لبيان الترابط والتجانس بين أجزاء الآية الواحدة، ومن ذلك ما جاء عند قوله تعالى: ﴿والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البـقرة: 4]، حيث يبين التناسب بين ألفاظ الآية موضحاً أثر الأغراض في بيان ذلك التناسب فيقول: "ولـمَّا كان قصد تخصيصهم بالذكر يستلزم عطفهم، وكان العطف بدون تنبيه على أنهم فريق آخر يوهم أن القرآن لا يهدي إلا الذين آمنوا بما أنزل من قبل؛ لأن هذه خاتمة الصفات فهي مرادة، فيظن أن الذين آمنوا عن شرك لا حَظَّ لهم من هذا الثناء، وكيف وفيهم مِن خِيرة المؤمنين من الصحابة وهم أشدُّ اتقاءً واهتداءً؟ إذْ لم يكونوا أهل ترقب لبعثة رسول من قبل، فاهتداؤهم نشأ عن توفيق رباني، دُفع هذا الإيهام بإعادة الموصول؛ ليؤذِن بأن هؤلاء فريق آخر غير الفريق الذي أجريت عليهم الصفات الثلاث الأول، وبذلك تبين أن المراد بأهل الصفات الثلاث الأوَل هم الذين آمنوا بعد شرك لوجود المقابلة"[51]، وابن عاشور في نظرته الجميلة هذه قد وافق البقاعي كذلك عندما قال: "ولـمَّا وصفهم بالإيمان جملة أشار إلى تفصيله على وجه يدخل فيه أهل الكتاب دخولاً أوليًّاً فقال: ﴿والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: يوجدون هذا الوصف بعد سماعهم للدعوة إيجاداً مستمراً"[52]، وبالنظر إلى آثار هذا الاستعمال للتناسب بين أجزاء الآية يتبين لنا الآتي:

- يبين أهمية ترابط أجراء الآية وترابطها في تفسير الآية وإيضاحها بما يكشف عما فيها من حكم وأسرار.
- يعتبر التناسب بين أجزاء الآية سبيلاً موصلاً إلى بيان الأغراض والمقاصد فيها.

---

[51] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص237-238.

[52] البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج1، ص36.

- يضمن الآية بالعديد من المقاصد التي كشفها حصول التناسب ومنها: مقصد التذكير بنعمة الهداية، ومقصد التخصيص للمؤمنين بالذكر والعناية، ومقصد التنبيه على الجزاء المنتظر.

- ومن منهج ابن عاشور في إيراد المناسبات أنه أحيانا يذكر المناسبة بين الآية، وغرض من أغراض السورة؛ ليربط بذلك بين الآية والسورة، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء عنه عند قول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 158]، حيث يبين وجه المناسبة بين الآية وأحد أغراض السورة قائلاً: "هذه الآية مرتبطة بأصل الغرض المسوق له الكلام، وهو تسلية المؤمنين على ما أصابهم يوم أُحُد، وتفنيد المنافقين في مزَاعمهم أنّ الناس لو استشاروهم في القتال لأشاروا بما فيه سلامتهم فلا يهلكوا"[53]، و ابن عاشور بنظرته هذه لا يذهب بعيداً عما صرح به البقاعي قبله عندما قال: "ولمَّا تقدم في قصة أحد رجوع المنافقين وهزمية بعض المؤمنين مما كان سبب ظفر الكافرين، وعاب سبحانه ذلك عليهم بأنهم هربوا من موجبات السعادة والحياة الأبدية إلى ما لا بد منه، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: 154]، وختم بالإخبار بأنه وقع قتل كثير من الرسل، فكان ذلك محققاً لأنه لا يصان من الموت خاص ولا عام، مضموماً إلى ما نشاهد من ذلك في كل لحظة، صوَّر ذلك الموت بعد أن صار مستحضراً للعيان تصويراً أوجب التصريح به، إشارة إلى أن حالهم في هربهم ورجوعهم، وما تبع ذلك من قولهم حال من هو في شك منه فقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾"[54]، وبالتأمل في أثر المناسبة بين الآية وأغراض السورة في هذا المثال يتبين لنا الآتي:

- يعتبر المناسبة رابطاً مهماً بين غرض الآية وأغراض السورة.
- يرشد إلى أن المناسبة تدل على أغراض أخرى غير الأغراض الرئيسية للسورة.
- تضمنت الآية على العديد من الأغراض والمقاصد ومنها: مقصد التسلية للمؤمنين، ومقصد البيان للفوز الحقيقي، ومقصد التحذير من دخائل النفاق.

وبناء على ما سبق يتضح لنا أثر المناسبات في خدمة التفسير المقاصدي بالنقاط الآتية:

---

[53] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج4، ص187.

[54] البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج2، ص191.

- المناسبات مهمة لخدمة الأغراض والمقاصد عموماً، وذلك من حيث إبراز الترابط والتواؤم بين أجزاء الآية الواحدة والآيات في السورة، وبين السور القرآنية، فالترابط بين أجزاء الآية وبين أجزاء السورة والقرآن ككل يدل على ترابط الأغراض في الجميع.
- المناسبات في الآية سبيل لإظهار مقاصد الآية والأسرار التي فيها بما في ذلك مقصد حسن السبك، وجمال التنسيق، وروعة الالتحام بين أجزائها مما يعطي أثارة وتشويق لما تضمنته الآية من الحكم والأحكام.
- المناسبات في السورة تعاضد ما اشتملت عليه السورة من الأغراض الكلية، وتسهم في بيانها وإظهارها، وتظهر مقاصد أخرى منها تتابع الكلام، وحسن ترتيبه؛ ليكون مقبولاً لدى العقول فتسلم لما في الآية من التوجيهات والدلائل.
- المناسبات بين السور لا تعتبر قاعدة مطردة بل قد تحصل أحياناً ولا تحصل في أحايين أخرى، ولا ينبغي الاشتغال بإظهار ذلك فقد كان ابن عاشور لا يرى ذلك حقاً على المفسر.
- قد تبرز هناك علاقة واضحة بين المناسبة وغرض كلي من أغراض السورة، والفائدة من ذلك بيان الترابط بين الآية والسورة من ناحية، وإظهار أصل الغرض ومكانه الذي استنبط منه من ناحية أخرى.

وبهذا يتبين لنا أثر المناسبات في خدمة التفسير المقاصدي، وكيف استخدم ابن عاشور المناسبات في سبيل إبراز ذلك الأثر، وأظهره في حُلَّة رائعة تعزز من توجهه المقاصدي، وتفتح أبواباً أمام الباحثين لدراسة مثل هذه العلائق والآثار، فكان هذا التوجه من ابن عاشور بحق من الأصالة والتميز المنهجي الذي تفرد به.

نتائج البحث

من أبرز النتائج التي خلص إليها البحث ما يأتي:

1 أن علم المناسبات هو ذلك العلم الذي يعني بأسرار ارتباط الآيات والسور بعضها ببعض، انطلاقاً من أغراضها ومقاصدها التي تضمنتها، للوصول إلى حقيقة الاتساق والانتظام للمعاني والمباني بينها

2 أن التفسير المقاصدي هو ذلك النوع من التفسير الذي يهتم ببيان الأغراض والمقاصد التي تضمنها القرآن، وشرعت من أجلها أحكامه، ويكشف عن معاني الألفاظ، مع التوسع في دلالاتها، مراعياً في ذلك قواعد التفسير الأخرى كالمأثور، والسياق، والمناسبات، وغيرها.

3 أن منهج ابن عاشور برز متألقاً في الاستفادة من علم المناسبات بما يخدم التفسير المقاصدي، وذلك من خلال اعتماده للمناسبات في منهجية تفسيره فهو يبدأ بذكر مناسبة الآية لما قبلها إن وجدت، ويتخذها كمدخل لخدمة توجهه في التفسير.

4 أن ابن عاشور يرى بأن المناسبات مهمة لخدمة الأغراض والمقاصد عموماً، وذلك من حيث إبراز الترابط والتواؤم بين أجزاء الآية الواحدة والآيات في السورة، وبين السور القرآنية، فالترابط بين أجزاء الآية وبين أجزاء السورة والقرآن ككل يدل على ترابط الأغراض في الجميع.

المصادر والمراجع

إبراهيم بن موسى الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، (السعودية: دار ابن عفان، ط1، 1417هـ/1997م).

ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، د.ط، 1997م).

ابن منظور، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط1، د.ت).

أبو بكر الباقلاني، **إعجاز القرآن**، تحقيق: السيد أحمد صقر، (القاهرة، دار المعارف، ط1، د.ت).

أحمد بن على الفيومي، **المصباح المنير**، (بيروت: المكتبة العلمية، ط1، د.ت).

إسماعيل الحسني، **نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور**، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1416هـ/1995م).

البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، تحقيق: عبدالرزاق غالب المهدي, (بيروت: دار الكتب العلمية, د.ط, 1415هـ /1995م).

حسين الحربي، **قواعد الترجيح عند المفسرين**، (الرياض: دار القاسم، ط1، 1417هـ/1996م).

الزرقاني، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، د.ط، د.ت)

الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط1، 1376هـ/1957م).

عادل الشويخ، **تعليل الأحكام في الشريعة الإسلامية**، (طنطا: دار البشير للعلوم والثقافة، ط1، 1420هـ/2000م).

عبد الكريم حامدي، **المدخل إلى مقاصد القرآن الكريم**، (الرياض: مكتبة الرشد ناشرون، ط1، 1428هـ/2007م). يَمينَة ساعد بُوسعَادي، **مقاصد الشريعة وأثرها في الجمع والترجيح بين النصوص**، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنسر والتوزيع، ط1، 1428هـ/2007م).

عبد الكريم حامدي، **مقاصد القرآن من تشريع الأحكام**، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1429هـ-2008م).

العز بن عبد السلام، **الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز**، تحقيق: رمزي بن سعد الدين دمشقية، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط1، 1408هـ).

عمر بن محمد المديفر، **المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور من سورة طه إلى سورة القصص جمعاً ونقداً ودراسة**، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، رسالة ماجستير غير مطبوعة، د.ت).

فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1421هـ/2000م).

فهد الرومي، **دراسات في علوم القرآن**، (الرياض: د.ن، ط16، 1430هـ/2009م).

محمد بن على الشوكاني، **إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول**، تحقيق: أحمد عزو عناية، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1419هـ/1999م).

محمد بن عمر الرازي، **المحصول في علم الأصول**، تحقيق: طه جابر العلواني، (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، ط1، 1400هـ).

محمد بن محمد الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، (بيروت: دار الهداية، د.ط، د.ت).

محمد عبد الله دراز، **النبأ العظيم**، تحقيق: عبد الحميد الدخاخني، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط1، 1417هـ/1997م).

محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، (بيروت: دار الجيل، د.ط، د.ت).

مصطفى مسلم، **مباحث في إعجاز القرآن**، (دمشق: دار القلم، ط1، 1429هـ/2008م).

نشوان عبده خالد، **معالم التفسير المقاصدي للقرآن الكريم: آيات الخمر نموذجاً**، (ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية، بحث تكميلي للحصول على درجة الماجستير في القرآن وعلومه، يونيو، 2010م).